[٤٨] جزاء الظلم [١]

سمكة تنقذ رجلاً

قال عليّ بن حرب [٢] :

أردت أن أسافر من بلدى الموصل إلى بلد « سرَ مَنْ رأى » لشراء بعض البضاعة ، وكانت هناك سفن تسير فى نهر دجلة من الموصل إلى « سر مَنْ رأى » تنقل الركاب والبضاعة بالأجرة ، فركبت إحدى هذه السفن ، وسرنا فى نهر دجلة متجهين نحو « سر مَنْ رأى » .

وكان فى السفينة بعض البضاعة ونفر من الرجال لا يتجاوز الخمسة ، وكان النهار صحواً ، والجو جميلاً ، والنهر هادئاً ، والربّان يحدو ويغنى غناءً جميلاً ، والسفنية تسير على صفحة الماء سيراً هادئاً ، حتى أخذت أكثرَنا غفوةً من النوم ، أما أنا فكنت أمتع نظرى بمناظر الشطآن الجميلة على جانبى النهر ، وفجأة رأيت سمكة كبيرة تقفز من النهر إلى داخل السفينة فهجمت عليها وأمسكت بها قبل أن تعود إلى النهر مرة أخرى .

وانتبه الرجال من غفوتهم بسبب الضجة التى حصلت ، وعندما رأوا السمكة قال أحدهم : هذه السمكة أرسلها الله تعالى إلينا ، لما لا ننزل بها إلى الشاطئ ، فنشويها ونأكلها ؟ ، وهي كبيرة تكفينا جميعاً فأعجبنا رأيه ، ووافق الربان على ذلك ، فمال بنا إلى الشاطئ ونزلنا واتجهنا إلى دغل [٣] من الشجر

---

(١) كان يا ماكان .

(٢) وردت هذه القصة فى الصفحة ١٨٠ من كتاب « طبقات الأولياء » لابن الملقن طبعة دار المعرفة حيث قال : ذكر ابن عساكر فى تاريخه عن عليّ بن حرب قال : ، ثم ذكر القصة مختصرة .

(٣) دغل : الشجر الكثير .

لنجمع الحطب ونشوى السمكة .

وما أن دخلنا الدغل حتى فوجئنا بمنظر اقشعرت منه جلودنا ، فوجئنا برجل مذبوح وإلى جانبه سكين حادة على الأرض ، وبرجل آخر مكتوف بحبل قوي وحول فمه منديل يمنعه من الكلام والصراخ ، فاندهشنا من هذا المنظر ، فمن قتل القتيل ما دام الرجل مكتوفاً ؟ أسرعنا أولاً فحللنا رباط الحبل ورفعنا المنديل من فمه ، وكان في أقصى درجات الخوف واليأس .

وعندما تكلم قال : أرجوكم أن تعطوني قليلاً من الماء أشربه أولاً ، فسقيناه وبعد أن هدأ قليلاً ، قال : كنت أنا ، وهذا الرجل القتيل في القافلة التي تسير من الموصل إلى بغداد ، والظاهر أن هذا القتيل لاحظ أن معي مالاً كثيراً ، فصار يتودد إليّ ويتقرب مني ولا يفارقني إلا قليلاً ، حتى نزلت القافلة في هذا المكان لتستريح قليلاً ، وفي آخر الليل استأنفت القافلة السير ، وكنت نائماً فلم أشعر بها ، وبعد أن سارت القافلة استغل هذا الرجل نومي وربطني بالحبل كما رأيتم ، ووضع حول فمي منديلاً لكي لا أصرخ ، وسلب مالي الذي كان معي ، ثم رماني إلى الأرض وجلس فوقي يريد أن يذبحني وهو يقول : إن تركتك حيّاً فإنك ستلاحقني وتفضحني لذلك لابد من ذبحك .

وكان معه سكين حادة يضعها في وسطه ، وهي هذه السكين التي ترونها على الأرض ، وأراد سحب السكين من وسطه ليذبحني ، لكنها علقت بحزامه ، فصار يعالجها ثم نترها بقوة ، وكان حدها إلى أعلى فخرجت بقوة واصطدمت بعنقه وقطعت الجلد واللحم والشريان فتدفق الدم منه ، وخارت قواه ثم سقط ميتاً .

وحتى بعد موته كنت موقناً بالموت لأن هذا المكان منقطع لا يأتيه أحد إلا

قليلاً ، فمن يفكنى ؟ من ينقذنى ؟ وصرت أدعو الله سبحانه وتعالى أن يرسل من ينقذنى مما أنا فيه ، فأنا مظلوم ودعاء المظلوم لا يُرَد ، وإذا بكم تأتون وتنقذوننى مما أنا فيه ، فما الذى جاء بكم فى هذه الساعة إلى هذا المكان المنقطع ؟ .

فقالوا له : الذى جاء بنا هو هذه السمكة ، وحكوا له كيف قفزت من الماء إلى السفينة ، فأتوا بها إلى هذا المكان لكى يشووها ويأكلوها ، فتعجب من ذلك وقال : إن الله سبحانه وتعالى قد أرسل هذه السمكة إليكم لكى يجعلكم تأتون إلى هذا المكان وتخلصوننى مما أنا فيه ، والآن إننى تعب جداً ، أرجوكم أن تأخذونى إلى أقرب بلدة .

فصرفوا النظر عن شيَ السمكة وأكلها ، وأخذوا الرجل بعدما حمل معه المال الذى سلبه الرجل الآخر منه ، وعادوا به إلى السفينة ، وما أن وصلوا السفينة حتى قفزت السمكة إلى الماء وعادت إلى النهر مرة أخرى ، فكأنما قد أرسلها الله سبحانه وتعالى حقاً لكى تكون سبباً فى إنقاذ الرجل المظلوم ، وهكذا إذا أراد الله تعالى شيئاً هيأ أسبابه [١] .

---

(١) قال النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: « اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » ، رواه البخارى ومسلم .

[٤٩] يتزوج بالقرآن !!

عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله جئت لأهب نفسي ، فنظر إليها رسول الله ﷺ فصَعَّد النظر إليها وصوبه ثم طأطأ رأسه ، فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئاً جلست .

فقام رجل من أصحابه فقال : يا رسول الله إن لم تكن لك بها حاجة فزوّجنيها . فقال : « **هل عندك من شيء ؟** » ، قال : لا والله يا رسول الله ، قال : « **اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئاً** » ، فذهب ثم رجع ، قال : لا والله يا رسول الله ما وجدت شيئاً .. ! ، قال : « **التمس ولو خاتماً من حديد** » فالتمس فلم يجد شيئاً ، فقال : لا والله يا رسول الله ، ولا خاتماً من حديد ، ولكن هذا إزاري فلها نصفه ... ! فقال رسول الله ﷺ : « **ما تصنع بإزارك إن لبستهُ لم يكن عليها منه شيء ، وإن لبستَهُ لم يكن عليك منه شيء ...** » .

فجلس الرجل حتى طال مجلسه ، ثم قام ، فرآه رسول الله ﷺ مولياً فأمر به فدُعي ، فلما جاء قال : « **ماذا معك من القرآن** » ، قال : معي سورة كذا وسورة كذا ، قال ﷺ : « **أتقرؤهن عن ظهر قلبك ؟** » ، قال : نعم ، **قال** : « **اذهب فقد زوجتكها بما معك من القرآن** » [١] .

---

(١) صحيح : رواه الخمسة .

[٥٠] ما وفيتها حقها (١)

من بِرّه بها

يحاول جاهداً أن يحقق لها ما تريد

اقتربت من الهزيع الأخير من العمر

استسلمت قدماها للكبر

فعجزت أن تحملها

ذبلت قواها

قلبها لا يزال قوياً

فهو يحبها

يحنو عليها

يقبلها ، صباح ... مساء .

فكرت راودت خيالها ..

يا لروعتها لو تحققت

ترى هل تتحقق

لا تقوى على الكلام حتى تبوح بها

بريق عينيها على غير العادة

---

(١) غربة والدين ، لعبد الله العبادة .

هو يعرفها جيداً رحلة عمر معها

ترى ماذا تريد ؟

وما هذا البريق فى عينيها ؟ .

ماذا تريدين ؟ .

ماذا تشتهين ؟ .

لقد حيرنى هذا البريق فى عينيك

قالت فى قلبها

أنت طيب القلب يا مهجة عمرى .

أشارت بيدها إلى هناك

إلى بعيد .. بعيد جداً

ترى هل يستطيع أن يحقق طلبها

أقسم عليها أن تخبره

لعله أن يحقق لها أمنية قبل الرحيل

الظمأ إلى تلك البقاع

يلهب ذلك القلب الرقيق

والحنين يشدها إلى هناك

إلى مراتع الأحبة والحبيبات

آه يا أماه

ما أروعك

إلى هناك مرة واحدة ؟

يالعزيمتك

وكيف الوصول إليها ؟

وبيننا وبينها .. جبال وأودية

وصحاري وقفار

ومفازة يصعب قطعها

ليس لدينا ما ينقلنا أو يبلغنا

لكن الأمل

بالواحد الديان

الذي جعلك أمّاً لي رحومة وعطوفة

والذى وفقني لأُبرك

أسأله أن يمنحنى القوة

أن أردَّ لك شيئاً من حقِّك

ومن حقِّك على أن أحقق لك هذه الأمنية

وسأجعلك تشربين من الماء العذب

الذى نبع بين قدمى ابن الخليل

وستمشين فى ذلك المكان الطاهر

الذى مشت عليه أم ابن الخليل

فيارب عونك

ويارب قوتك

يوم الرحيل

الزاد قليل

والإيمان كالجبال

الراحلة

وما الراحلة

إنها .....

إنها كتفاه

نعم كتفاه

- لا تستغرب -

« هذا شيء من الثمن يا أخي » .

ولكن يا لبعد المسافة

وطول الطريق

تدلت قدماها من فوق كتفيه

تحطه الوهاد

وتقله القفار

يصعد الثنايا

ويهبط الأودية

ينام ويقوم

يتعب ... يتذكر أمنيتها قبل الرحيل

ترى هل ستصل إلى هناك ؟

صحراء بعد صحراء ..

ليل بعد نهار

سراب يخدع النظر

نهشه الجوع والبرد

وقدماها تتدلى من فوق كتفيه

تداعب أحاسيسه الأمانى

ياترى ... هل سأوفيها حقها قبل الرحيل

أوه يالها من أمنية ويالهذا الجبل ما أعلاه

يارب عونك ومددك

مشارف أم القرى

تلوح بين السراب من خلف الجبال

رائحة زمزم تعطر السماء

ومسك الحجر الأسود يعبق صخور الجبال

ومشارف البيت العتيق تطل على الدنيا

يا لروعة البيت

كم نحبك ونجلك

كم أنت فى قلوبنا

لكى أن تفرحى يا أماه

ستكتحل عيناك برؤية الكعبة

وستشربين من زمزمها

وستنامين فى بطحائها

المسلمون فى البيت يطوفون

يوحدون الله

يدعونه ويلبونه

زحام شديد على الحجر

بين ألوف الناس

قدماها تتدلى من فوق كتفيه

هذا الحجر يا أماه

وهذه زمزم يا أماه

نحن عند المقام يا أماه

هنا صلى المصطفى ﷺ حينما كان وحيداً يدعو

وهنا صلى محفوفاً بأصحابه بعدما فتح مكة منتصراً

السؤال وسط الزحام يلح عليه مرة أخرى

ترى هل وفيتها حقها ؟

على كتفي من اليمن

على كتفى بين الشعاب والأودية

على كتفي فى هجير الصيف

ولهيب الشمس

وعلى كتفي بين الصفا والمروة

على كتفي عند المقام

على كتفى عند الحجر

وسط الزحام

على كتفى تستيقظ وتنام

السؤال مرة أخرى

ترى هل وفيناها حقها ؟

من يريح النفس بالجواب

وأسألك يارب أن تجزل لنا الثواب .

زحام ..... زحام

عند الحجر والمقام

من هذا يكون ؟

من هذا الرجل ؟

الله أكبر يا لهذا الوقار

يا لهذه السكينة

سأل أحدهم بجواره

من يكون ؟ من يكون ؟

نعم .... الله أكبر

هذا الذى سيريح النفس بالجواب

هذا العالم ... هذا الحجة

سيقول فصل الخطاب

نعم . وكيف لا ...

إنه ابن الذى يفر الشيطان منه

ابن الذى نزل القرآن موافقاً لرأيه

ابن الذى لا تأخذه فى الله لومة لائم

ابن الذى فرق الله بإسلامه بين الحق والباطل

ابن الذى كان سهماً مصلتاً على المنافقين

ابن الذى يحب الله ورسوله

فقد شرب هذا الابن من أبيه

شرب علمه

شرب زهده

شرب تقواه

شرب محبة الله ورسوله ﷺ

فقد كان مقتفياً لآثار رسول الله ﷺ

إذاً هو حجة فى العلم ؟

كيف لا وهو صاحب السلسلة الذهبية فى الحديث

فمنه يؤخذ العلم

إذاً فتواه حجة

ياترى من هو ؟

إنه ابن الفاروق عمر

يا إبن الفاروق سلام الله عليك

هذه أمي .. إلى البيت العتيق

على ظهري من اليمن

هل وفيتها حقها ؟؟

يرقب شفتيه بكل اهتمام

لعله يقول ما يوافق هواه

أو لعله ....

يا ابن الفاروق

أجبني ... ؟

ابن عمر يقول :

ولا طلقة واحدة من طلق الولادة .

قال المولى جل وعز وتبارك : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ [1] .

---

(١) سورة لقمان الآية « ١٤ » .

[٥١] اللهم ارزقنا ... السابعة ... !!

كان رجل يزرق بالبنات ، فكانت عنده ست من البنات وكانت زوجته حاملاً فكان يخشى أن تلد بنتاً ، وهو يرغب بالولد ... فعزم فى نفسه على طلاقها إن هى جاءت ببنت ... ! ونام تلك الليلة فرأى فى نومه كأن القيامة قد قامت وحضرت النار ، فكان كلما أخذوا به إلى أحد أبواب النار وجد إحدى بناته تدافع عنه وتمنعه من دخول النار ، حتى مر على ستة أبواب من أبواب جهنم وفى كل باب تقف إحدى البنات لتحجزه من دخول النار ، سوى الباب السابع ، فانتبه مذعوراً ، وعرف خطأ ما نواه وما عزم عليه فندم على ذلك ودعا ربه وقال : اللهم ارزقنا السابعة !! .

---

(١) مجالس النساء .

[٥٢] إنها العناية الإلهية (١)

امرأة صالحةٌ تقيّةٌ تحبُّ الخير ولا تفترُ عن ذكر الله ، لا تسمح لكلمة نابية أن تخرج من فمها ، إذا ذكرت النّار خافت وفزعت ، ورفعت أكفَّ الضراعة إلى الله طالبة الوقاية منها ، وإذا ذكرت الجنّة شهقت رغبة فيها ، ومدت يديها بالدعاء والابتهال إلى الله أن يجعلها من أهلها ، تحب الناس ويحبونها ، وتألفهم ويألفونها ، وفجأة شعرت بألم شديد فى الفخذ وتسارع إلى الدهون والكمادات ولكن الألم يزداد شدة .

وبعد رحلة فى مستشفيات كثيرة ، ولدى عدد من الأطباء سافر بها زوجها إلى لندن ، وهناك وفى مستشفى فخم وبعد تحليلات دقيقة يكتشف الأطباء أن هناك تعفناً فى الدم ويبحثون عن مصدره فإذا هو موضع الألم فى الفخذ ، ويقرر الأطباء أن المرأة تعانى من سرطان فى الفخذ هو مبعث الألم ومصدر العفن . وينتهى تقريرهم إلى ضرورة الإسراع ببتر رجل المرأة من أعلى الفخذ حتى لا تتسع رقعة المرض .

وفى غرفة العمليات كانت المرأة ممددة مستسلمة لقضاء الله وقدره ، ولكن لسانها لم ينقطع عن ذكر الله ، وصدق اللجؤ والتضرع إليه .

ويحضر جميع الأطباء فعملية البتر عملية كبيرة ، ويوضع الموسى فى المقص وتدنى المرأة ويحدد بدقّة موضع البتر ، وبدقة متناهية ووسط وجل شديد ورهبة عميقة يوصل التيار الكهربائى ، وما يكاد المقص يتحرك حتى ينكسر

---

(١) ٥٠ زهرة من حقل الصبح ، لعبد العزيز المقبل

الموسى وسط دهشة الجميع ، وتعاد العملية بوضع موسى جديد ، وتتكرر الصورة نفسها وينكسر الموسى ، وما يكاد الموسى ينكسر للمرة الثالثة – لأول مرة فى تاريخ عمليات البتر التى أجريت من خلاله – حتى ارتسمت علامات حيرة شديدة على وجوه الأطباء الذين راحوا يتبادلون النظرات ، اعتزل كبير الأطباء بهم جانباً ، وبعد مشاورات سريعة قرر الأطباء إجراء جراحة للفخذ التى يزمعون بترها ، وبالشدة الدهشة !! ما كان المشرط يصل إلى وسط أحشاء الفخذ حتى رأى الأطباء بأم أعينهم قطناً متعفناً بصورة كريهة ، وبعد عملية يسيرة نظف فيها الأطباء المكان وعقموه .

صحت المرأة وقد زالت الآلام بشكل نهائى حتى لم يبق لها أثر .

نظرت المرأة فوجدت رجلها لم تمس بأذى ، ووجدت زوجها يحادث الأطباء الذين لم تغادر الدهشة وجوههم ، فراحوا يسألون زوجها هل حدث وأن أجرت المرأة عملية جراحية فى فخذها ، لقد عرف الأطباء من المرأة وزوجها أن حادثاً مرورياً تعرضا له قبل فترة طويلة كانت المرأة قد جُرحَتْ جرحاً بالغاً فى ذلك الموضع ، وقال الأطباء بلسانَ واحد إنها العناية الإلهية .

وكم كانت فرحة المرأة وكابوس الخطر ينجلى ، وهى تستشعر أنها لم تمش برجل واحدة كما كان يؤرقها ، فراحت تلهج بالحمد والثناء على الله الذى كانت تستشعر قربه منها ولطفه بها ورحمته لها .

﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ (٢)

وزارة بعنقود من العنب !! ما أرخص تلك الوزارة إذن ، ولكنها لم تكن كذلك ، بل كانت غالية جداً ، وعنقود العنب لم يكن إلا علامة على الطريق علامة على الكرم والصدق والصلاح والتقوى ، وكان قبله كثير من الدرس والسهر والتعب ، وكان بعده كثير من التعب والجد والإخلاص أيضاً .

الوزير هو عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيبانى ، وُلد فى شهر ربيع الآخرة سنة ٤٩٩ هـ فى قرية « الدور » قرب بغداد ، ووصل إلى رتبة الوزارة فى عهد الخليفة العباسى المقتفى لأمر الله ثم ابنه المستنجد بالله .

ولكنه قبل أن يصل إلى الوزارة عاش فى الفقر والبؤس والذل ، فصبر صبر الكرام ، وبعد أن وصل إلى الوزارة لم ينتقم ممن أساء إليه قبلها ، وهذا دليل الحلم والكرم ، لأنه عفو عند المقدرة .

وقد حكى هو نفسه عن بعض من أهانه وأساء إليه ثم عفا عنه بعد أن أصبح وزيراً فقال : أحضر لى الشرطة يوماً رجلاً متهماً بالقتل ، فعرفته لأنه من أهل قريتى « الدور » فافتديته من أهل القتيل بستمائة دينار ، ثم أعطيته خمسين ديناراً وصرفته ، وقلت للجالسين حولى : هل تعلمون أن عينى اليمنى لا أبصر بها ؟ قالوا : لا ، لا نعلم ، فقلت : إننى لا أبصر بها ، وسببها هذا الرجل الذى افتديته وصرفته الآن ، كنت جالساً فى بعض الطريق فى قريتى

---

(١) كان يا ماكان للدكتور / عبد الرازق الكيلانى .

(٢) سورة يوسف الآية « ٩٠ » .

«الدور» وبيدى كتاب فقه أقرأ فيه ، فأتى هذ الرجل ومعه سلة من الفاكهة وقال لى : احمل هذه السلة ، فقلت : ما أنا بحمّال ، فضربنى بيده على عينى اليمنى فذهب بصرها منذ ذلك الوقت ، وأردت الآن أن أكافئ إساءته بالعفو والإحسان بعد قدرتى عليه .

ودخل عليه مرة أحد الجنود الأتراك ، فقال لحاجبه : أعط هذا الجندى عشرين ديناراً ، ولا تدعه يدخل عليّ مرة أخرى ، ثم قال للجالسين حوله : عندما كنت فى قريتنا « الدور » وقع فيها قتيل ، فأتى الجنود الأتراك وأخذوا جميع أهل القرية وأنا معهم ، وكان نصيبى من هذا الجندى الذى رأيتموه الآن ، وكان هو راكباً فرساً ، فساقنى أنا وبضعة رجال من قريتنا أمامه بعد أن ربط أيدينا وراء ظهورنا ، وفى الطريق صار الرجال رفاقى يعطونه ما معهم من الدراهم فيفكهم ويطلق سراحهم ، وبقيت وحدى لأنه لم يكن معى شىء من المال أفتدى به نفسى ، فصار يضربنى ويسوقنى أمامه بقسوة وعنف ، وأنا ساكت ، حتى أدركتنا صلاة العصر فطلبت منه أن يسمح لى بالصلاة ، فلم يسمح وهذا أكثر ما أغضبنى منه .

أما وصوله إلى الوزارة فهذه قصته :

نشأ يحيى بن محمد بن هبيرة فى قرية « الدور » فى عائلة فقيرة ، تشتغل بفلاحة الأرض وزراعتها ، ولكنه لم يكن مهتماً بالفلاحة ولا بالزراعة ، وإنما كل اهتمامه كان منصباً على القراءة وملاحقة الشيوخ والعلماء فى كل مكان.

لذلك عندما أصبح شاباً ذهب إلى بغداد ، فقرأ القرآن الكريم وسمع الحديث الشريف ودرس الفقه والأدب والبلاغة على شيوخ بغداد وعلمائها وأدبائها فى ذلك العصر ، حتى برع فيها جميعها ، وبخاصة فى الفقه على

المذهب الحنبلى ، كما أصبح أديباً وشاعراً كبيراً .

وعند ذلك أخذ يفتش عن وظيفة يعيش منها فى بغداد ، ولأجل ذلك أخذ يراجع ديوان الوظائف فى بغداد ، التابع للخيلفة العباسى المقتفى لأمر الله ، وكلما راجعهم كانوا يقولون له : لا توجد وظيفة الآن ، حتى نفدت دراهمه ، ويئس من وجود وظيفة له فى ديوان بغداد ، فعزم على العودة إلى قريته « الدور » .

وخرج من بغداد بعد أن أنفق آخر درهم كان معه ، واتجه فى الطريق إلى قرية « الدور » سيراً على الأقدام ، لأنه لم يكن معه أجرة دابة يركبها ، وبعد أن سار فى الطريق قليلاً أدركته صلاة العصر ، فنظر حوله فرأى مسجداً قديماً على جانب الطريق ، فمال نحوه ليصلى العصر ، وسمع وهو يصلى أنيناً يأتى من جانب المسجد ، لذلك بعد أن أنهى صلاته اتجه نحو ذلك الصوت فوجد شخصاً مريضاً نائماً على الأرض فى طرف المسجد ، فلمسه بيده فوجده مصاباً بالحمى ، فسأله عما يشعر به فقال له : إن جسمه كله يؤلمه ، وأنه غريب منقطع ليس له أحد ، لذلك لجأ إلى هذا المسجد المنقطع والبعيد عن العمران ، فسأله ابن هبيرة عما يشتهيه ، فقال له : إننى أشتهى عنقوداً من العنب ، عنقود من العنب !! من أين لي عنقود من العنب الآن وأنا بعيد عن العمران ؟؟ وليس معى درهم واحد ، قال يحيى بن هبيرة لنفسه : سأسعى جهدي للحصول على عنقود من العنب لهذا المريض الذى يودع آخر أيام الدنيا ، ويستقبل أول أيام الآخرة ، لعله يدعو لى دعوة مستجابة يفرج بها الله تعالى عني ما أنا فيه ، وهكذا صَنَعَ المعروف لوجه الله تعالى مع هذا المريض الفقير المجهول ، وهو لا ينتظر منه أى جزاء أو مقابل ، فكان معروفه هذا نقطة تحول غيرت مجرى حياته

وحضوره إلى المريض بعنقود من العنب .

ذهب ابن هبيرة يجرى لكى يصل العمران قبل حلول الظلام ، ووصل إلى دكان لبيع الفاكهة فوجد فيها عناقيد شهية من العنب ، فتناول عنقوداً كبيراً منها وقال لصاحب الدكان : بكم هذا العنقود ؟ قال : بنصف درهم ، فقال له : ابن هبيرة ولكن ليس معى ثمنه الآن ، وإننى أرهن عندك عباءتى هذه إلى أن آتيك بثمنه ، فرضى منه البائع ذلك ، فخلع ابن هبيرة عباءته وأعطاها للبائع ، وأخذ عنقود العنب وذهب يركض إلى المسجد الذى فيه المريض ، فوصل إليه مع غياب الشمس وهبوط الظلام ، فتوضأ وصلى المغرب ، وغسل عنقود العنب بالماء وقدمه للرجل المريض .

وفرح المريض به فرحاً شديداً ، وأكله كله ، وقال : الحمد لله الذى قضى شهوتى قبل أن أموت ، فقد كنت أشتهى العنب منذ مدةطويلة ولا أستطيع شراءه لأنه ليس معي ثمنه ، ثم التفت إلى ابن هبيرة وقال له : أنت رحمة أرسلها الله سبحانه وتعالى إليّ ، اجلس يا بنى لأحكـي لك قصتى قبل أن أموت ، فإننى أشعر أنى سأموت فى هذه الليلة .

أنا رجل من خراسان اسمى أحمد كنت تاجراً من كبار تجار مدينة « مرو» فى خراسان وكان لى أخ تاجر مثلى ، أصغر منى اسمه محمود ، ومنذ سنة تقريباً اتفقت أنا وأخى على الذهاب فى القافلة التى تذهب عادة من « مرو » إلى بغداد لشراء بضاعة من بغداد ، نبيعها فى خراسان ، فاشتريت أنا بالمال الذى معى بضاعة من « مرو » لكى أبيعها فى بغداد وأشترى بدلاً منها بضاعة من بغداد آخذها إلى « مرو » .

أما أخى محمود فلم يشتر بضاعة وإنما كان معه ألف دينار وضعها فى

حزام وأعطاني إياه لأخبئه معى لأننى أكبر منه وأوعى . وقبل وصولنا إلى بغداد خرج علينا قطّاع الطرق فهاجموا القافلة ونهبوا البضاعة كلها ، وقتلوا منا ناساً وجرحوا آخرين ، وكنت أنا بين الجرحى ، ولكنهم حسبونى من الأموات فتركونى ، وبعد ذهابهم تحاملت على نفسى وقمت ، وفتشت عن أخى بين القتلى وبين الجرحى فلم أجده ، فقلت لعلي أجده فى بغداد ، وكانت قد أصبحت قريبة منا ، فتوجهت إلى بغداد ، وصرتُ أداوى جرحى فى القرى التى أمرّ بها ، حتى وصلت إلى بغداد وشفي جرحي .

أما بضاعتى أنا وأموالى فقد ذهبت كلها ، أخذها اللصوص ، ولم يبق معى إلا حزام أخى الذى فيه ألف دينار وبضعة دنانير لى كانت فى جيوبى ، وصرت أصرف على نفسى من دنانيرى حتى نفدت ، ولم تسمح نفسى أن آخذ شيئاً من دنانير أخى ، فصرت أعمل وأصرف على نفسى إلى أن أصابنى المرض وأشرفت على الموت كما ترى .

ومنذ سنة وأنا أبحث عن أخى فى بغداد ولكننى لم أجد له أثراً ، وحزامه لا يزال معي ، وأظن أننى سأموت فى هذه الليلة ، فإذا مت أرجو أن تغسلنى وتدفننى ، وأن تأخذ الحزام الذى فيه ألف دينار ، وأن تبحث عن أخى محمود فإن وجدته فأعطه الحزام ، وإن لم تجده فالحزام لك ، افعل به ما تشاء .

يقول ابن هبيرة : وفى الليل وأنا نائم إلى جانب الرجل المريض سمعته يتشهد ويشهق ، فنظرت إليه فإذا هو قد مات ، فقمت وغسلته وصليت عليه ، ودفنته وأخذت الحزام ، وعدلت عن الذهاب إلى قريتى « الدور » بعد أن صار معي ألف دينار ، وتوجهت إلى بغداد فى الصباح فذهبت إلى بائع العنب فأعطيته ديناراً أخذ منه نصف درهم ثمن العنب وردّ إليّ الباقى

وأعطانى عباءتى.

وذهبت إلى شاطىء نهر دجلة لأنتقل إلى القسم الآخر من بغداد فوجدت قارباً فيه ملاّح ينقل الناس بالأجر فركبت معه ، ودجلة نهر عريض ، يستغرق قطعه نحو نصف ساعة أو أكثر ، فصرت أحادث الملاح ، فوجدت لهجته غير بغدادية ، فسألته من أى البلاد أنت؟ قال : أنا من خراسان ، من مدنية « مرو » قلت : ما اسمك ؟ قال : محمود . قلت : وما الذى جاء بك إلى هنا ؟ قال : هذه قصة طويلة لا شأن لك بها ، فأقسمت عليه أن يحكى لى قصته ، فقال : أنا كنت تاجراً فى « مرو » وكان لى أخ أكبر منى اسمه أحمد تاجر أيضاً واتفقنا أن نذهب إلى بغداد لنشترى بضاعة منها نبيعها « مرو » وكان معى ألف دينار وضعتها فى حزام وخبأتها مع أخى لأنه أكبر منى ، وذهبنا مع القافلة وقبل وصولنا إلى بغداد خرج علينا اللصوص فنهبوا القافلة وقتلوا وجرحوا خلقاً منها ، وهربت أنا منهم قبل أن يصلوا إلىّ .

وفى اليوم الثانى عدت إلى مكان القافلة ففتشت بين القتلى والجرحى فلم أجد أخى ، والظاهر أنه طمع فى الألف دينار التى كانت معه فأخذها وهرب بها وتركنى أقاسى الفقر والحرمان ، فجئت إلى بغداد وجلست على شاطئ دجلة حزيناً ، فرآنى صاحب هذا القارب فسألنى عن حالى ، فحكيت له قصتى ، فقال : تعال اشتغل معى على هذا القارب فإننى قد أصبحت شيخاً عجوزاً ضعيفاً ، لا قدرة لى على العمل وليس لى ولد .

فاشتغلت معه ، ثم زوجنى ابنته وأسكننى فى بيته ، ثم توفى منذ بضعة أشهر رحمه الله تعالى .

يقول ابن هبيرة : فسألته عن صفات حزامه فكانت مطابقة لصفات الحزام

الذى معى ، فتيقنت أنه هو صاحب الحزام ، فأخرجته له . فلما رآه شهق وكاد أن يغمى عليه ، فرششت عليه الماء فانتبه وقال : من أين لك هذا الحزام ؟ ، فحكيت له قصة أخيه وقلت له : إنه لم يهرب بالحزام ؟ بل كان يبحث عنك فى بغداد ليرده إليك ، فقال : رحمه الله تعالى رحمةً واسعة ، وفرح فرحاً شديداً بالحزام ، فقلت له : عدّ الدنانير فوجد ٩٩٩ ديناراً ، فقلت له : الدينار الناقص صرفته لأدفع منه ثمن عنقود من العنب لأخيك ، فقال : سامحك الله به ، وهذه عشرة دنانير أخرى لك ، وأعطانى عشرة دنانير ذهباً ، وتركته وذهبت .

وعندما وجدت نفسى فى بغداد قلت : لأذهب إلى ديوان الوظائف وأسألهم عن الوظيفة ، فذهبت وما أن رأونى حتى قالوا : أين أنت ؟ ، إننا نبحث عنك ، فقد شغرت عندنا وظيفة لك ، وهكذا كان عنقود العنب هو السبب فى رجوعى إلى بغداد ، وهو السبب فى حصولى على الوظيفة ، وتنقلت فى الوظائف حتى أصبحت مشرفاً على مخازن الخليفة المقتفي لأمر الله ثم أصبحت كاتباً فى ديوان الخليفة ، ولما رأى الخليفة كفايتى وأمانتى ونصحى قلدنى الوزارة فى سنة ٥٤٤هـ ، وبعد أن توفى الخليفة المقتفى لأمر الله صار ابن هبيرة وزيراً لابنه المستنجد بالله ، وبقى فى الوزارة إلى أن توفى سنة ٥٦٠ هـ رحمه الله تعالى .

[٥٤] من أروع القصص (١)

روى أنه لحق بني اسرائيل قحط على عهد موسى عليه السلام ، فاجتمع الناس إليه فقالوا : يا كليم الله .. ادع لنا ربك أن يسقينا الغيث ، فقام معهم وخرجوا إلى الصحراء وهم سبعون ألفاً أو يزيدون .. فقال موسى عليه السلام : إلهي .. اسقنا غيثك وانشر علينا رحمتك .. وارحمنا بالأطفال الرضّع والبهائم الرتّع والشيوخ الركع ، فما زادت السماء إلا تقشعاً .. والشمس إلا حرارة .. فتعجب موسى عليه السلام وسأل ربه عن ذلك .. فأوحى الله إليه : « إن فيكم عبداً يبارزني بالمعاصى منذ أربعين سنة ، فنادِ في الناس حتى يخرج من بين أظهركم ، فبه منعتكم .. » .. فقال موسى : إلهي وسيدي .. أنا عبد ضعيف ، وصوتي ضعيف ، فأين يبلغ ... وهم سبعون ألفاً أو يزيدون ؟ .. فأوحى الله إليه : منك النداء ومنا البلاغ .. فقام منادياً وقال : « أيها العبد العاصي الذى يبارز الله بالمعاصى منذ أربعين سنة .. اخرج من بين أظهرنا فبك مُنعنا المطر » ..

فنظر العبد العاصى ذات اليمين وذات الشمال فلم يرَ أحداً خرج منهم ، فعلم أنه المطلوب فقال في نفسه : إن أنا خرجت من بين هذا الخلق فضحت نفسى ، وإن قعدت معهم مُنعوا لأجلي .. فأدخل رأسه في ثيابه نادماً على فعاله ، وقال : إلهي وسيدي .. عصيتك أربعين سنة وأمهلتنى ، وقد أتيتك طائعاً فاقبلني .. فلم يستتم كلامه حتى ارتفعت سحابة بيضاء فأمطرت كأفواه القِرَب .. فقال موسى : إلهي وسيدي .. بماذا سقيتنا وما خرج من بين

(١) من كتاب اللآلي الحسان للمسند .

أظهرنا أحد ؟! فقال : يا موسى .. سقيتكم بالذى منعتكم « يعنى ذلك الرجل التائب » .. فقال موسى : إلهى أرني هذا العبد الطائع .. فقال يا موسى .. إنى لم أفضحه وهو يعصينى ، أأفضحه وهو يطيعنى ؟؟ .

وهكذا كان رجل عاصٍ سبباً فى منع الماء من السماء فكيف إذا كانت الأمة كلها عاصية إلا من رحمه الله ؟؟

وصدق الله إذ يقول :

﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ (١) .

---

(١) سورة الجن الآية « ١٦ » .

[٥٥] رأى في المنام غناه بمصر [١]

قال القاضي أبو عمر محمد بن يوسف : كان في جوارنا رجلٌ انتشرت عنه حكاية ، وظهر في يده مال جليل ، بعد فقر طويل فسألت عن الحكاية ، فقال : ورثت عن أبي مالاً جليلاً ، فأسرعت فيه ، وأتلفته حتى أفضيت إلى بيع أبواب داري وسقوفها ، ولم يبق لي من الدنيا حيلة ، وبقيت مدة بلا قوت ، إلا من غزل أُمّي ، فتمنيت الموت .

فرأيت ليلة في النوم ، كأن قائلاً يقول لي : غناك بمصر ، فاخرج إليها .

فبكرت إلى أبي عمر القاضي ، وتوسلت إليه بالجوار ، وبخدمة كانت من أبي لأبيه ، وسألته أن يزودني كتاباً إلى مصر ، لأتصرف فيها ، ففعل وخرجت.

فلما حصلت بمصر أوصلت الكتاب ، وسألت التصدق ، فسد الله على الوجوه حتى لم أظفر بتصدق ولا لاح .

ونفدت نفقتي فبقيت متحيراً ، وفكرت في أن أسأل الناس ، وأمد يدي على الطريق ، فلم تسمح نفسي ، فقلت : أخرج ليلاً وأسأل ، فخرجت بين العشاءين ، فمازلت أمشي في الطريق ، وتأبى نفسي المسألة ، ويحملني الجوع عليها ، وأنا ممتنع إلى أن مضى صدر من الليل .

فلقيني الطائف [٢] ، فقبض عليَّ ، ووجدني غريباً فأنكر حالي ، فسألني عن خبري ، فقلت : رجل ضعيف ، فلم يصدقني ، وبطحني ، وضربني

---

(١) الفرج بعد الشدة والضيق ، للحازمي .

(٢) العسس وهو رجل الشرطة الآن - الناشر - .

مقارع فصحت : أنا أصدقك .

فقال : هات .

فقصصت عليه قصتي من أولها إلى آخرها ، وحديث المنام .

فقال لي : أنت رجل ما رأيت أحمق منك ، والله لقد رأيت منذ كذا وكذا سنة ، في النوم ، كأنه رجلٌ يقول لي : ببغداد في الشارع الفلاني ، في المحلة الفلانية – فذكر شارعي ومحلتي – فسكت ، وأصغيتُ إليه – وأتم الشرطي الحديث فقال : دار يقال لها : دار فلان – فذكر داري ، واسمي – فيها بستان ، وفيه سدرة – وكان في بستان داري سدرة وتحت السدرة – مدفون ثلاثون ألف دينار فامض ، فخذها ، فما فكرت في هذا الحديث ، ولا التفت إليه ، وأنت يا أحمق ، فارقت وطنك ، وجئت إلى مصر بسبب منام .

قال : فقوي بذلك قلبي ، وأطلقني الطائف ، فبت في بعض المساجد ، وخرجت مع السحر من مصر ، فقدمت بغداد ، فقطعت السدرة ، وحفرت تحتها ، فوجدت قمقماً فيه ثلاثون ألف دينار ، فأخذته ، وأمسكت يدي ، ودبرت أمري ، فأنا أعيش من تلك الدنانير ، من فضل ما ابتعت منها من ضيعة وعقار إلى اليوم .